فصل
فى ملوك عرب الشام

ملوك عرب الشام آل جفنة من بنى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبا غير أنهم لما تفرقوا من اليمن نزلوا على ماءٍ بالشام يقال له غسان فاشتهروا بهِ حتى غلب اسمه عليهم فقيل لهم آل غسان وكان بالشام قوم من سليح يقال لهم الضجاعمة وكانوا من ملوك الطوايف الذين قتل أسعد الحميرى من كان منهم باليمن وقتل أزدشير كسرى من كان منهم بأرض العجم فهنض آل غسان على الضجاعمة وأخرجوهم عن الشام وقتلوا ملوكهم وكانوا ثلثة من ولد نزار بن معدّ وفهر بن مالك والقلمس بن عامر من ملوك الحجاز وتهامة وملكوا مكانهم بالشام وكان أول من ملك من آل غسَّان جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو بن مُزَيقياءَ وتمهدَّت لهُ الديار الشاميَّة بعد قتل ملوك الضجاعمة وعظمت دولته وبنى بالشام مصان كثيرة وكان ملكه خمسًا وأربعين سنةً وثلثة أشهر ثم ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وهو الذى بنى صرح الغدير فى أطراف حوران مما يلى البلقاء وكان ملكه سبع عشرة سنة ثم ملك بعده ابنه الحرث بن ثعلبة وكان ملكه عشرين سنة ثم ملك بعده ابنهُ جَبَلة بن الحرث وهو الذى بنى القناطر وأذرح والقسطل وكان ملكه عشر سنين ثم ملك بعده ابنه الحرث بن جبلة وكانت أمه مارية ذات القرطين اللذين يُضرَب بهما المثل فى التنافس وهى بنت عمرو بن جفنة وقد ذكرها حسان بن ثابت الأنصارى فى قصيدتِه التى يمدح بها آل جفنة حيث يقول *

لله درُّ عصابةٍ نادمتهم ... يومًا يحلقَ فى الزمان الأولِ
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية المعم المخولِ
يسقون مَن وَرَد البريص عليهم ... بَرَدَى تصفق بالرحيق السلسلِ
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شمُّ الأنوف من الطراز الأول
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبلِ

وكان مسكن الحرث بالبلقاءِ فبنى بها الحقير ومصنعه وقصر أبير ومعان وكان ملكه عشرين سنة ثم ملك بعده ابنه المنذر الأكبر بن الحرث بن مارية وكان ملكه ثلث سنين ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحرث وكان ملكه خمس عشرة سنة وستة أشهر ثم أخوه المنذر الأصغر ثم أخوه جبلة بن الحرث ثم أخوه الأيهم بن الحرث ثم أخوه عمرو بن الحرث وكان شديد التكبر ذميمًا قبيح السيرة والمنظر أنشأ فى دمشق وضواحيها ومعاملاتها عدة قصور شامخة منها قصر الفضا وصفات العجلات وقصر منار وصوَّر فى بعض هذه القصور مجالسه وجلساءَ دولته وأشكال صورتهِ فكانت منتزهاتٍ لا يوجد مثلها وكان قد رسم لنفسهِ فى كل ليلة جاريةَ عذراءَ من السبايا التى تصيبها خيله المغيرة فى البلاد على العصاة من أهلها فلم يزل ذلك دأبه حتى وقعت عنده فى السبى أخت عمرو بن الصعق العدوانى فلم يشعر إلا وأخوها قد وقف بهِ وهو يقول ❊

يا أيها الملك المهيب أما ترى ... صبحًا وليلًا كيف يختلفانِ
هل تستطيع الشمس أن يؤتى بها ... ليلًا وهل لك بالصباح يدانِ
فاعلم وأيقن أن ملكك زائلٌ ... وكما تدين تدان عقد رهانِ

فوقعت هذه الأبيات فى قلبه وقال له قد أمنك الله على من لك عندى وأمن كل الناس على من وقع لهم من السبايا وأبطل تلك السنَّة من ذلك اليوم وكان ملكه ستًا وعشرين سنة وشهرين ثم ملك بعده جفنة الأصغر ابن المنذر الأكبر وهو الذى أحرق الحيرة وبذلك سمى المحرق وكان ملكهُ ثلثين سنة ثم ملك بعده أخوه النعمان الأصغر ابن المنذر الأكبر ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر وهو الذى بنى

قصر السوَيداءِ وقصر حارب ولم يكن عمرو أبو النعمان ملكًا لكنه كان من كرام العشيرة وفيهِ يقول النابغة الذبيانى ❊

علـــى لعمـــرٍو بعـــد نعمـــةٍ لوالـــدهِ ليـــست بـــذات عقـــاربِ

وكان ملك النعمان بن عمرو سبعًا وعشرين سنة وملك بعد النعمان ابنه جبلة وكان ينزل بصفِّين وهو صاحب يوم عين أباغ الذى فتك فيهِ ببنى لخم ونزار وكان ملكه ست شعرة سنة ثم ملك بعده النعمان بن الأيهم بن الحرث وكان ملكه إحدى وعشرين سنة ثم ملك بعده أخوه الحرث بن الأيهم ثم النعمان بن الحرث وهو الذى أصلح صهاريح الرصافة وكان قد أخربها بعض ملوك الحيرة اللخميين ثم ملك بعده ابنه المنذر بن النعمان وكان ملكه تسع عشرة سنة ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ثم ملك أخوهما حجر بن النعمان ثم ملك ابنه الحرث بن حجر ثم ملك ابنه جبلة بن الحرث وكان ملكه سبع عشرة سنة وشهرًا واحدًا ثم مملك بعده ابنه الحرث بن جبلة بن أبى شمر وهو الذى أوقع ببنى كنانة وكان يسكن أحيانًا فى الجابية وأحيانًا فى عمان التى تعرف بالبلقاءِ وكان ابتداءُ ملكه فى عصر النعمان بن المنذر ملك الحيرة فكانت بينهما مغايرةٌ فى الشرف وكان الحرث كثير الغزو والغارات على قبايل العرب وكان كريمًا جوادًا كثير المواهب فكانت العرب تدعوه الوهاب وقيل لم يجتمع من الشعراءِ بباب أحد من ملوك عصرهِ ما كان يجتمع ببابهِ وكان حسان بن ثابت الأنصارى الشاعر المشهور منقطعًا إليه وله فيهِ مدايح كثيرة من ذلك قوله يمدحه ويهجو النعمان بن المنذر ❊

ونبيـــــت أن أبـــــا منـــــذرٍ يـــساميك للحـــرث الأصـــغرِ
قـــذالك أحـــسن مـــن وجهـــهِ وأمّـــك خـــيرٌ مـــن المنـــذرِ
ويـــسرى يـــديك علـــى غيرهـــا كيمنـــى يديـــهِ علـــى الميـــسرِ

وذلك أن الحرث قال يومًا لحسَّان يريد أن يمتحنه بلغنى أنك نسبت إلى النعمان رفعة شانٍ وبلغت فى مدحه الغاية فقال حسَّان الأبيات وكان ملك الحرث المذكور إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ثم ملك بعده ابنه النعمان بن الحرث وكان شديد

الاجتهاد فى انتشار النصرانية فى البلاد أكثر من أجادهِ وكان ملكًا عادلًا شجاعًا فاضلًا كثير الخير قليل الشرّ حسن الصورة والسيرة وكان يحبُّ العلماءَ والفضلاءَ ويدّمهم على أشراف الناس وفيهِ يقول النابغة الذبيانى والنعمان إذ ذاك فى غيبةٍ له ❊

فإن يرجع النعمان نفرح ونبتهج ... ويأتى معدًّا ملكها وربيعها
ويرجع إلى غسان ملكٌ وسوددٌ ... وتلك المنى لو أننا نستطيعها

وتوفى النعمان المذكور قتيلًا فى بعض مغازيهِ فقال النابغة يرثيهِ من جملة قصيدة يقول فى مطلعها:

دعاك الهوى واستجهلتك المنازلُ ... وكيف تصابى المرءو والشيبُ شاملُ
وقفت بربع الدار وقد غير البلى ... معارفها والمسارات الهواطلُ
أسايل عن سعدى وقد مر بعدنا ... على عرصات الدار سبعٌ كواملُ

إلى أن يقول:

فلا يهنئ الأعداء مصرع ملكهمُ ... وما عتَّقت منهم تميم ووائلُ
وكانت لهم ربعيةٌ يحدرونها ... إذا خضخضت ماء السماء القبائلُ
يسير بها النعمان تغلى قدوره ... تجيش بأسباب المنايا المراجلُ
يقول رجالٌ ينكرون خليقتي ... لعل زيادًا لا أبالك غافلُ
أبى غفلتى أنى إذا ما ذكرتهُ ... تحرَّك داءٌ فى فوادى داخلُ
فإن تلكُ قد ودعت غير مذمّم ... أو أسى ملكٍ ثبتتها الأوائلُ
فلا تبعدن أن المنية منهلٌ ... وكل امرءٍ يوما بهِ الدهر زائلُ
فما كان بين الخير لو جاءَ سالمًا ... أبو حجر إلا ليال قلايلُ
فإن تجى لا أملل حياتى وإن تمت فما فى حياةٍ بعد موتك طايلُ
سقى الغيث قبرًا بين بصرى وجاسم ... بغيث من الوسمى قطرٌ ووابلُ
لا زال ريحانٌ ومسكٌ وعنبرٌ ... على منتهاهُ ريمةٌ ثم هاطلُ

ثم ملك بعده الأيهم بن جبلة بن الحرث وهو صاحب تدمر وقصر بركة وذات أنمار وكان له عاملٌ يقال لهُ القين بن جسر بنى له بالبرية قصرًا عظيمًا قيل إنه قصر برقع وهو الذى يقول فيهِ النابغة الذبيانى وكان حينئذٍ حديث السنّ ❊

هـــذا غـــلامٌ حَـــسنٌ وجهـــهُ ... مـــستقبل الخـــير ســـريع التمـــام
للحـــرث الأكـــبر والحـــرث ال ... أعـــرج والأصـــغر خـــير الأنـــام
ثـــم لهنـــدٍ ولهنـــد أنتمـــي ... جـــدَّات صـــدقٍ وجـــدود كـــرام
خمـــسة آبـــاءِهُمُ مـــا هُـــمُ ... وخـــير مـــن يـــشرب مـــاءَ الغمـــام

وملك بعد الأيهم أخوه المنذر بن جبلة وذلك سنة ستماية وعشرين للمسيح وكان ملكه ثلث عشرة سنة ثم ملك أخوهما شرجبيل بن جبلة ثم ملك بعده أخوه عمرو بن جبلة ثم ملك بعده ابن أخيهِ جبلة بن الحرث وكان ملكه أربع سنين ثم ملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسَّان وكان طويل القامة مخيف الجسم يلبس الثياب الفاخرة وهو الذى ينى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسماها باسمهِ وقيل إنه أسلم فى خلافة عُمَر بن الخطاب فسار إلى مكة يريد الحج بمايتين وخمسين نفرًا من أصحابهِ فلما قرب من المدينة قلد أعناق خيله بقلايد الذهب والفضة ووضع تاجه على رأسهِ ولما بلغ عُمَر قدومه التقاه بمن عنده ورفع مقامه حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت مُحرِما متزرًا إذ وطئَ رجلٌ من فزارة طرف إزاره فانحلَّ عنهُ الإزار حتى بدت عورته فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزارى لطمةً هشم بها أنفه فتعلق بهِ الرجل وانطلق إلى عُمر ودمه يسيل على وجههِ فقال لهُ عمر أنت بين أن يلطمك الرجل كما لطمته أو تفتدى اللطمة منه فقال جبلة أفلا يُفَضَّل عندكم ملكٌ على سوقة قال كلا بل كلاهما فى الحق سواءٌ فأنِف جبلة من ذلك ولما جنَّه الليل خرج بقومه حتى لحق بالشام فارتدَّ عن إسلامهِ فتكب عُمَر إلى عاملهِ بالشام أبى عبيدة بن الجرَّاح أن يستنيب جبلة فإن تاب وإلا ضرب عنقه وبلغ ذلك جبلة خرج هاربًا إلى قيصر ملك الروم وأقام عنده وكانت ملوك غسَّان عمالًا للقياصرة على عرب الشام وكانت أيام دولتهم نحو ستماية سنة ❊